البواعث الحقيقية لضم محمد علي بلاد السودان
(دراسة تقويمية)

د . زكى علي البحيرى

أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر المساعد

كلية التربية - جامعة المنصورة

البواعث الحقيقية لضم محمد علي بلاد السودان

(دراسة تقويمية)

مدخل:

الموضوع الذى نقدمه فى هذه الدراسة يدور حول تقويم البواعث الحقيقية التى دفعت محمد علي لدخول السودان فى عام ١٨٢٠ وضمه إلى الدولة الكبرى التى أراد أن يكونها حول مصر، تلك البواعث التى لا تزال محل جدل ونقاش كبيرين ، ومجال اتفاق واختلاف واسعين بين الباحثين . ولقد سادت فى السنوات الأخيرة استعمال مصطلحات حديثة أطلقها الأوروبيون على دخول محمد علي بلاد السودان؛ مثل "الغزو التركى" و"تعدى الوالى المصرى على السودان"، و"الاستعمار العثمانى"، و"الاحتلال المصرى للسودان"...الخ، وسار على دربهم كثير من الباحثين العرب والأفارقة .

ولا يمكننا البت فى مدى مصداقية هذه المقولات بخلاف المقولة الشائعة "فتح السودان" إلا بعد دراسة أسباب دخول محمد علي السودان، دراسة موضوعية تتناول الظروف والملابسات السياسية ، الداخلية والدولية والاقتصادية والاجتماعية ، التى أحاطت بهذا الحدث العظيم .

ومن المعروف أن العلاقات بين مصر والسودان قامت منذ أزمنة سحيقة، حيث وجهت مصر اهتمامها بالبلاد الأفريقية الواقعة إلى الجنوب منها بدءاً من مناطق السودان . وتؤكد المصادر التاريخية من آثار ونقوش أن المصريين القدماء قاموا بعدة محاولات لاستكشاف القارة الأفريقية، وبخاصة التعرف على منابع النيل، وتمثلت تلك المحاولات فى رحلات "زوسر"، و "سنفرو"، و "أون"، و "بيبى الأول"، و"أمنمحات الأول"، و "سنوسرت الأول"، و "تحتمس الثالث" وغيرهم ، وقد وصل كثير من هؤلاء إلى مناطق التقاء النيلين الأبيض والأزرق، كما وصلوا إلى بلاد "بونت" (الصومال حاليا) [١].

الامتداد البشرى بين مصر والسودان

تطورت أحداث التاريخ فى مصر الفرعونية وبلاد السودان حتى جاء الفتح الإسلامى على يد عمرو بن العاص، وهاجرت بعض القبائل العربية إلى مصر، بخاصة إلى شرق الدلتا وغربها وبلاد الصعيد[٢]، وتحركت هذه القبائل العربية حول نهر النيل، وعلى السواحل الأفريقية الشرقية للبحر الأحمر نحو السودان، الذى جاءت إليه هجرات أخرى من شمال أفريقيا وغربها، وقد بلغت هذه الهجرات ذروتها فى منتصف القرن الرابع عشر الميلادى، حيث تدفق المهاجرون العرب بأعداد كبيرة إلى مملكة المقرة المسيحية، وإلى المناطق الوسطى وأرض البطانة والجزيرة، وإلى كردفان ودارفور، واختلط العرب بالمجموعات السودانية المحلية، ونشروا الإسلام بينهم وتبوئوا المراكز القيادية فى البلاد[٣] .

ولما جاء العرب إلى مصر والسودان اختلطت القبائل العربية بقبائل النوبة، وحل الدين الإسلامى محل الأديان الموجودة من وثنية ومسيحية، وأصبحت الثقافة العربية هى الثقافة السائدة بين القبائل من جنوب أسوان حتى ملتقى النيلين الأبيض والأزرق، وشكلت اللغة العربية نحو٣٣٪ من المفردات اللفظية للغة النوبية، وفى هذه المنطقة انتشرت فروع القبائل النوبية بعد دخولها الإسلام ومنها الكنوز والعليقات والبجة فى مصر، وسكوت والحجر والمحس والدناقلة فى السودان، وامتدت تلك القبائل وفروعها حتى بلدة "الدبة"[٤].

ومن الثابت انتشار قبائل البجا فى الصحراء الشرقية وعلى سواحل البحر الأحمر فى مصر والسودان منذ حوالى ٤٠٠٠ سنة ق.م. ويؤكد "سلجمان" أن السلالة التى كانت تقطن الصحراء الشرقية شديدة الشبه بقدماء المصريين ، على أن هؤلاء حافظوا على نقاء سلالاتهم، واحتوت لغتهم الكوشية على كثير من الكلمات الفرعونية، وقبل دخول المسيحية إلى بلاد النوبة كان سكانها يعتنقون ديانة تعد خليطاً من المصرية القديمة واليونانية والمروية (نسبة إلى ثقافة

مروى فى السودان)، فلما جاء الإسلام حدث اختلاط بين قبائل البجا والعرب المسلمين، وغلب الإسلام على ما عداه من الديانات الأخرى، وكان من أهم القبائل البجاوية البدوية العربية المنتشرة على ساحل البحر الأحمر البشاريون، والعبابدة، والهدندوة، والأمرار، وبنو عامر، تلك التى انساحت على السواحل المصرية السودانية بلا حدود ولا فواصل، بطريقة مشابهة تقريبا لما حدث حول نهر النيل(٥).

ولعل تلك الأحداث وغيرها تؤكد أن التواصل البشرى والثقافى بين مصر والسودان كان قائماً، وأن الامتداد الصحراوى والجبلى، والجنادل الستة لم تمثل عائقاً أمام هذا التواصل، فقد استمرت العلاقات والهجرات بين قاطنى وادى النيل، وازدادت العلاقات توثقا عند مناطق التماس، ولذلك نرى أن العلاقات الطبيعية والبشرية العميقة هى أحد أهم العوامل التى شجعت حاكم مصر الطموح محمد علي لتوسيع مجال نفوذه وسيطرته على بلاد السودان التى كان لها علاقات متعددة بسكان مصر.

الوضع السياسى لبلاد السودان قبل الفتح

نتيجة لدخول الدين الإسلامى من ناحية، وانتشار اللغة والثقافة العربيتين فى شمال السودان من ناحية أخرى ، ظهرت سلسلة من الممالك والسلطنات الإسلامية؛ أهمها مملكة الفونج (السلطنة الزرقاء) فى منطقة الجزيرة بين النيلين الأزرق والأبيض، وقامت فى منطقة كردفان مملكتى تقلى والمسبعات الصغيرتان. وفى القرن السابع عشر أسس "سليمان سولونق"، من قبائل "الكنجارة" مملكة دارفور فى غرب السودان(٦).

وكانت سلطنة الفونج بمثابة مجموعة من الممالك والمشيخات، منها ما خضع للفونج مباشرة، ومنها ما خضع لهم بطريق غير مباشر بوساطة العبدلاب، فالتى خضعت للفونج مباشرة مشيخة خشم البحر، ومشيخة الحمدة، ومملكة بنى عامر، ومملكة الحلانقة، أما القبائل التى خضعت للفونج عن طريق

العبدلاب فهى مشايخ الجعليين، والميرفاب، والربطاب، والشنابلة، والحمد، والجموعية، والمناصير. والواقع أن السلطنة الزرقاء كانت أبعد ما تكون عن الحكومة المركزية، فلم تكن لها مؤسسات إدارية، ولم تتعد علاقة السلطنة الزرقاء بتلك الممالك والمشيخات أكثر من جباية الضرائب، وتعيين حاكم مكان الحاكم السابق(٧) .

وفى تاريخ مملكة الفونج أو السلطنة الزرقاء يعد عهد "بادى أبو دقن" من عام ١٦٤٥ حتى عام ١٦٨٠ بمثابة العصر الذهبى للمملكة، حيث شهد عهده توسعاً كبيراً فى كردفان عندما غزت جيوشه مملكة تقلى، كما تحققت للفونج السيطرة على جبال النوبة، غير أن قبائل المسبعات الفوارية حاولت إيجاد مملكة لها فى كردفان لكى تكون قاعدة للهجوم على دارفور. وعندما زاد نفوذ المسبعات تدخل الفونج فى سنة ١٧٤٧ولكنهم انهزموا أول الأمر ثم استطاعوا بقيادة "محمد أبو لكيلك" من زعماء الهمج فى مملكة الفونج تحقيق النصر على المسبعات، وظل أبو لكيلك حاكماً على كردفان لمدة ١٤ عاما نجح خلالها فى بناء جيش قوى لهذه المملكة(٨) .

وفى النصف الأول من القرن التاسع عشر جاء إلى سدة الحكم فى مملكة الفونج السلطان "بادى أبو شلوخ" الذى اتسم عهده الأول بالعدل والرخاء، غير أنه استبد بالحكم فى النصف الثانى من عهده، فلما تمادى أبو شلوخ فى جبروته اتفق "أهل الأصول" من الفونج مع أبى لكيلك لعزله، فتوجه "أبو لكيلك" من كردفان إلى سنار حيث طرد السلطان بادى أبو شلوخ وعين ابنه ناصر مكانه، فانهار الوضع فى كردفان بعد خروج "أبو لكيلك"، كذلك قضت مملكة الفونج بعد وفاته سنة ١٧٧٦ أيامها فى صراع شديد مع المسبعات والفور(٩) ، وأصبحت بلاد السودان الأوسط مسرحا للفتن، واستغلت الممالك والمشيخات التى كانت تتبع المملكة السنارية (الفونج) ضعف سلطاتها المركزية واستقلت عن سنار استقلالا فعليا، وكانت قبائل الشايقية أول من تمرد على الفونج، وفرضوا نفوذهم على منطقة دنقلة كلها، كذلك تمكن العبدلاب بقيادة شيخهم محمد

الأمين من تحقيق قدر كبير من الاستقلال بعد أن هزموا الهمج وقتلوا زعيمهم بادى ود سنة ١٧٨٠، كما صارت الشكرية أعظم قوة فى أرض البطانة، وظل وضع التشتت والفتن والاختلاف، والصراع على السلطة حتى مجىء الحكم المصرى التركى سنة ١٨٢١ (١٠).

كانت تلك هى ظروف بلاد السودان فى بدايات القرن التاسع عشر، وإذا كان معظم الملوك والحكام الذين حكموا مصر منذ أقدم العصور فكروا فى مد نفوذهم وملكهم إلى الجنوب نحو السودان، فقد رأى هؤلاء الحكام أن فى ذلك استكمالا لوحدة وادى النيل، ومن ثم لم يكن من المستغرب أن يفكر محمد علي فى الاتجاه جنوبا بعد أن وصل إلى سدة الحكم فى مصر منذ عام ١٨٠٥ ، خاصة أنه أراد أن تكون لمصر شخصية قوية، وإمبراطورية واسعة ذات إمكانات اقتصادية وسياسية كبيرة، إمبراطورية تمتد من أعالى النيل وحتى آسيا الصغرى. لقد سار محمد علي، على درب عظماء الفراعنة الذين وصلوا إلى ملتقى النيلين فى بلاد السودان، وبلاد "بونت" جنوبا وإلى الشام شمالا، غير أنه كان أكثر طموحا منهم(١١) .

وكان السلطان العثمانى قد استنجد بمحمد علي لضرب الحركة الوهابية فى الجزيرة العربية فلما تمكن الوالى المصرى من ذلك خلال السنوات من ١٨١١-١٨١٨، قام السلطان العثمانى بمكافأة ابنه إبراهيم باشا - قائد الجيوش المصرية فى الحجاز- بأن عينه واليا على جدة التى كان يتبعها من الناحية الإدارية سواكن ومصوع وما جاورهما على سواحل بلاد السودان الشرقى، وبذلك أتيحت فرصة مناسبة أطلت منها الإدارة المصرية على أحوال بلاد السودان، وعرفت ظروف السلطنات والممالك الموجودة هناك، وتكشفت خفايا الفوضى والحروب الأهلية فيها (١٢) .

وإذا كان محمد على قد طالب السلطان العثمانى بمنحه ولاية سوريا فى ذلك الوقت حتى يتمكن من تضييق الخناق على الوهابيين من جانبين - من

شمال الجزيرة العربية حيث بلاد الشام بجانب سيطرته على غربها من جهة البحر الأحمر - فمن الطبيعى أن يفكر أيضا فى ضم الأقاليم التى تواجه سواحل الحجاز، خاصة بعد الحصول على ولاية جدة[١٣] . وائتلافا طبيعيا مع هذا الجو السياسى طلب محمد علي عام ١٨٢٠ من السلطان العثمانى أن يأذن له بفتح السودان بحسبان أنه كان للسلطان سيادة على سواكن ومصوع على ساحل البحر الأحمر منذ القرن السادس عشر الميلادى، فوافق السلطان محمود الثانى صاحب السيادة الشرعية على مصر ذاتها [١٤] .

وعلى أثر ذلك جهز محمد علي حملة تحت قيادة ابنه إسماعيل باشا توجهت نحو بلاد النوبة، وضمت حوالى ٥٤٠٠ مقاتل بمعداتهم من البنادق بالإضافة إلى ٢٤ مدفعا، ثم توجهت حملة ثانية بقيادة محمد بك الدفتردار، ثم ثالثة بقيادة إبراهيم باشا[١٥] ، ولا يدخل فى موضوعنا الاهتمام بتفاصيل هذه الحملات وما لاقته أو أنجزته حتى أتمت فتح السودان ، وإنما ينصب اهتمامنا هنا على الأسباب والبواعث الحقيقية التى دفعت محمد علي إلى فتح السودان ، والتى نرى مناقشتها على نحو التالى :

أولا: أهمية نهر النيل ومياهه ومنابعه بالنسبة لمصر

أراد محمد علي إقامة دولة كبيرة فى مصر تقوم على بنية اقتصادية متينة، فكان من الضرورى له الاهتمام بالزراعة بوصفها الأساس الذى ينبنى عليه اقتصاد البلاد حتى فى جانبه الصناعى ، وكان من اللازم عليه أن يقوم بمجموعة من المشروعات التى تطور نظام الرى والزراعة وتوزيع المياه، ولتحقيق ذلك كله كان عليه التحكم فى مياه النيل واستخدامها بدلا من ذهابها إلى البحر المتوسط، وقد جر هذا بطبيعة الحال محمد علي إلى التفكير فى تتبع منابع مياه النيل وتأمينها وضمان وصولها[١٦]، فمصر فى الواقع "هبة النيل" كما قال هيردوت ومجازا فإن مصر أو بالأحرى أرضها هى عروس يدخلها النيل فى موسم الفيضان، والنيل هو الذى يحيى الأرض ويبعث فيها الحياة فتخضر

بمحاصيلها الغناء[١٧].

وجدير بالذكر فى هذا المقام أن حكام الحبشة قد عمدوا منذ الأزمنة القديمة إلى تهديد مصر، بقطع المياه عنها، ويؤكد عبد الرحمن الرافعى "أن ضمان سلامة مصر وتأليف وحدتها السياسية والاطمئنان على منابع النيل كانت أهم البواعث التى حفزت محمد علي لفتح السودان". وفى هذا الصدد أيضا يقول "سيدنى بيل" - أحد النبلاء الإنجليز- فى كتاب له بعنوان "ضبط النيل والسودان الحديث" ، "كانت العوامل التى حملت محمد علي أن يفتح السودان كثيرة ، لكنه كان من المعتقدين فى فوائد الرى ومنافعه، مما يرجح كثيراً أن الاطمئنان على سلامة النيل الأعلى كان أحد أغراضه"[١٨].

ويقول إبراهيم باشا فوزى فى الجزء الأول من كتابه "السودان بين يدى غوردون وكيتشنر": إن محمد علي كان يريد بفتحه السودان التخلص من تدخل دولة أوروبية كبيرة سمع أنها تسعى لمعارضته وإضعاف دولته، وتتطلع لاحتلال وادى النيل، فاهتم بهذا الأمر "واستشار كثيراً من المهندسين الأوروبيين الذين جاء بهم من بلادهم ، فأقروا بالإجماع أن وقوع منابع النيل تحت براثن هذه الدولة مما لا تحمد مغبته ، حيث تصير حياة مصر فى يدها، فأصر على إنفاذ هذه الحملة إلى السودان"[١٩]. وقد كانت الدولة التى يخشى محمد علي من تغلغلها وسيطرتها على منابع النيل هى إنجلترا ، خاصة بعد أن استولت على مستعمرة رأس الرجاء الصالح وبدأت فى اختراق القارة الأفريقية من الجنوب ومن الغرب على السواء، بهدف وصولها إلى أواسط القارة .

وعمل محمد علي بعد دخوله بلاد السودان على نشر الأمن والاستقرار فى شماله، غير أن مسألة كشف أسرار منابع النيل ظلت تشغل باله، ففكر جديا فى إرسال البعثات الكشفية إلى المنابع الاستوائية ، ففى سنة ١٨٢٨ أرسل بعثة برئاسة إبراهيم كاشف وخورشيد بك، حيث استطاعت هذه البعثة أن تسير مع النيل الأبيض إلى بلاد "الشلك"، وتوغلت فى بلاد "الدنكا" جنوبا حتى وصلت

وبدايات القرن التاسع عشر، بدأت الدول الأوروبية الأخرى تتطلع إلى احتلال مناطق فى هذه القارة بسبب زيادة حاجتها إلى المواد الخام بعد قيام الثورة الصناعية . وكانت مصر تعيش تحت إمرة حاكمها محمد علي الذى أدرك أن إنجلترا بعد سيطرتها على مستعمرة الرأس قد جعلت منها مركزا انطلقت منه طلائع رحلات مغامريها الذين اخترقوا القارة وتغلغلوا فيها بغية الوصول إلى منطقة البحيرات ومنابع النيل مما يؤثر على مصر ويهدد مصالحها الحيوية . وكانت بريطانيا قد سبق لها أن أرسلت قنصلها "هنرى صولت" فى رحلتين إلى السودان الأولى سنة ١٨٠٥، والأخرى سنة ١٨٠٩، وكان "صولت" فى رحلته الأولى مرافقا للورد "فلانشيا" الذى أرسلته الحكومة البريطانية إلى نجاشى إثيوبيا للحصول على موافقته على منحها قاعدة حربية فى أرض الدناقل يمكن استخدامها لغزو مصر، وكان هدف رحلته الثانية توثيق العلاقات مع إثيوبيا الدولة المسيحية بوصف ذلك تمهيدا للتوسع الأوروبى فيما بعد . ولم يلبث أن هال بريطانيا اتساع النفوذ المصرى ، وتحكمه فى الخليج العربى والبحر الأحمر وتهديد الطريق إلى الهند أهم مستعمرات بريطانيا فى الشرق[٢٥]، فلما نجح محمد علي فى ضم بلاد السودان، وأرسل بعثاته لاكتشاف منابع النيل استغلت بريطانيا فرصة التوغل المصرى فى بلاد الشام، وآسيا الصغرى على حساب الدولة العثمانية سنة ١٨٣٨، وكونت حلفا من النمسا وبروسيا وفرنسا ، بهدف إنقاذ الدولة العثمانية من أنياب محمد علي ، والحقيقة أن بريطانيا لم يكن هدفها إنقاذ الدولة العثمانية أو الرجل المريض ، وإنما كان هدفها القضاء على الدولة المصرية الفتية التى امتدت من منابع النيل إلى آسيا الصغرى، ومن الخليج العربى إلى حدود برقة غربا، والتى رأت إنجلترا أنها تهدد مصالحها التجارية والاقتصادية بسبب اتباعها سياسة الاحتكار[٢٦] .

ومما يسترعى الانتباه أن مصر لم تهتم بوضع يدها على منابع النيل حين كان المتحكمون فيه سكانه الأصليون ، وهم قوم بسطاء لا يسعون للتأثير فى مصالح مصر الطبيعية فى مياه النيل [٢٧]. ولقد وضع محمد علي فى حسبانه الضعف

السياسى لبلدان تلك الجهات على نحو يُمكِّن إنجلترا من الوصول إليها والسيطرة عليها، وتهديد الدولة المصرية التى أراد إقامة صرحها.

والواقع أن السياسة الاستعمارية البريطانية هى التى عمقت سياسة الفصل بين مصر والسودان من ناحية ، وبين السودان الشمالى والجنوبى من ناحية أخرى . لقد كان غرض بريطانيا منع قيام قوة موحدة فى هذه المنطقة من حوض النيل . والحقائق التى يمكن أن نخلص إليها من تتبع الحوادث المتعلقة بمصر والسودان قديمها وحديثها أنه لا أمن ولا استقرار لسكان شمال الوادى فى مصر، كما أنه لا أمن ولا استقرار لسكان جنوب الوادى من السودانيين إلا فى ظل وحدة هذا الوادى العظيم أو على الأقل حسن العلاقات بين أقاليمه ، بل إن الأحداث المعاصرة تؤكد هذا المعنى[٢٨] . ولا أدل على ذلك من إعلان مصر والسودان فى السنوات الأخيرة " ٢٠٠٤" برنامج التكامل بين البلدين ، كما أقرت الدولتان قوانين تبيح حرية الإقامة والتنقل والعمل والملكية فى مصر لحساب السودانيين ، وفى السودان بالنسبة لأبناء مصر، إذن ألم يكن محمد علي بعيد النظر، عارفا ببواطن الأمور ومجاهل السياسة، وساعيا لترقية مصر والسودان ولإقرار أمنهما معا حين عمل على ضم بلاد السودان إلى مصر ؟

وحول هذا المعنى يذكر محمد فؤاد شكرى فى كتابه "مصر والسيادة على السودان" ، "أن محمد علي لم يغفل فى نشاطه السياسى أمر السودان ، فقد ظل هذا القطر يحتل مكانا ملحوظا فى مشروعاته السياسية الكبرى"[٢٩]. وبعد فتح السودان عام ١٨٢٠، قام محمد علي برحلة إليه سنة ١٨٣٨، وكانت أهداف رحلته متعددة، حيث كتب القنصل النمساوى لاورين Laurinعن هذه الرحلة: "إن فكرة تأسيس مملكة تضم بلاد السودان التى تقطنها شعوب لم تخضع لسلطان أحد عليها ، لم تكن موجودة قبل فتح محمد علي للسودان ورحلته إليه ".

ألا يثبت عرض الأحداث وتتبع مجرياتها مدى بعد نظر محمد علي ورغبته فى إنشاء دولة عظمى تضم ضمن ما تضم بلدانا عربية وأفريقية -أهمها

السودان- لها أهميتها فى تأمين مصالح مصر وحدودها الجنوبية؟

ثالثا: طلب الزعماء السودانيين مساعدة محمد علي

كان من أكبر العوامل شأنا فى تشجيع محمد علي وتأييده فى إرسال حملة إلى السودان، مطالبة بعض زعماء السودان وأهله أنفسهم بذلك، حيث دعوا هذا الوالى لإنشاء حكومة قوية على يد مصر، تقضى على أسباب الفوضى المنتشرة فى بلادهم، وتستبدل بها عهداً من الأمن والنظام والانتعاش التجارى والرخاء الاقتصادى(٣٠) .

ومن المؤكد تاريخيا أن بعض هؤلاء الزعماء السودانيين ذهبوا إلى محمد علي وطلبوا منه أن يعد جيشاً لفتح السودان، فبشير ود عقيد من قرية أم الطيور قرب عطبرة سنة ١٨١٦-١٨١٧ هرب إلى القاهرة بعد أن ضيق عليه سلطان سنار وأرسل وراءه رسلا يتعقبونه على أثر وشاية من الملك نمر ملك شندى ، وأن يسعوا إلى قتله، وقد طلب بشير ود عقيد من محمد علي أن يساعده على أن يصبح شيخا على الجعليين فى شندى مكان السلطان الذى أقصاه، فأبقاه محمد علي لديه وأكرمه حتى جهز جيشا وعجل بإرساله إلى السودان فسار ود عقيد مع الجيش حيث عينه إسماعيل بن محمد علي شيخا على شندى بعد فتح السودان(٣١).

وغادر نصر الدين ملك المرقاب بلاده أيضا للاستنجاد بعاهل مصر محمد علي ضد منافسه فى الحكم ود تمساح، كذلك فإن طمبل بن الزبير ذهب إلى مصر ملتمسا من واليها القوى مدداً من الجند والعتاد ليحارب أعداءه المماليك الهاربين إلى السودان والمستقرين فى دنقلة، أما أبو مدين فقد كان طلبه من محمد علي أن يتولى عرش دارفور من مغتصبه محمد الفضل سلطان دارفور، كما طالب ود هاشم معونة الباشا له ضد أعدائه فى كردفان.

ويعترض حسن أحمد إبراهيم الأستاذ بجامعة الخرطوم على حقيقة أن الزعماء السودانيين الذين ذهبوا إلى محمد علي كانوا يمثلون معظم السودانيين،

ويرى أن السودان لم يكن أرض خلاء بل كان فيه حكومات مستقلة ، ويدلل على ذلك بأن الجيش المصرى التركى وجد جماعات وجيوشا تقاومه مقاومة شديدة استمرت من الفتح حتى الثورة المهدية[٣٢]، ولكن هذا الكلام مردود عليه من عدة وجوه وهى:

(أ) أن عدد الزعماء الذين ذهبوا إلى مصر طلبا لنجدة محمد علي كثيرون وكانوا يمثلون أكبر الوحدات السياسية الموجودة فى السودان.

(ب) أن كثرة عدد من طلبوا من محمد علي المساعدة لاستقرار الأمن يدل على أن سلطناتهم كانت مضطربة، والصراع على الحكم فيها كان على أشده.

(ج) أنه لو كانت أحوال السودان مستقرة لما وقعت أحداث النهب والسلب والتعدى- من قبل القبائل السودانية - على قوافل التجارة بين السودان ومصر وغيرها من المناطق المجاورة.

(د) أن مسألة وجود موقف شعبى عام فى السودان لكى يقرر موقفا خاصا به من حيث الاستقلال أو الاستعانة بقوة خارجية...الخ أمر غير مقنع فى هذا الوقت ، بسبب سوء الأوضاع الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والتعليمية .

(هـ) أن محمد علي لو أحس بأن وضع السودان آمنا وقويا وفى إمكانه الدفاع عن نفسه ضد أى هجوم داخلى ، أو تدخل خارجى لما أقدم على خطوة فتح السودان .

ويرى بعض المؤرخين أن محمد علي كان يريد أن يخلص السودانيين من المشاكل والصراعات الأهلية التى كانت قائمة بينهم ، وأنه أراد أن يضم هذه المناطق الواسعة من بلاد حوض النيل ويجعل منها دولة موحدة متمدينة تشكل مع مصر قوة كبيرة وعمقا استراتيجيا فى أى صراع ينشب بينها وبين أية قوة أجنبية . ومن أصحاب هذا الرأى محمد فؤاد شكرى ، وهو رأى لا يوافق عليه حسن أحمد إبراهيم [٣٣]، ونوجه سؤالنا الآتى إليه : ألم تكن بالسودان صراعات أهلية؟ ومتى كان السودان دولة قومية موحدة شمالا وجنوبا قبل مجىء الحكم

المصرى التركى؟ ومتى كان لمصر قوة استراتيجية إلا أن يكون السودان جزءا من مكوناتها ؟ ألم يكن السودان فى أحسن حالات استقراره الاقتصادى والسياسى فى حالة وجود علاقات وثيقة بينه وبين مصر؟ أليس فى ذلك كله دلالة على أن مصير البلدين واحد بخاصة إذا كنا فى عصر العولمة والكتل السياسية الكبرى؟

رابعا: القضاء على بقايا المماليك الهاربين إلى السودان

بعد مذبحة القلعة هربت فلول المماليك إلى الصعيد، واعتصموا بالجبال التى كانت تسكنها قبائل العبابدة والبشاريين الذين أساءوا معاملتهم، وقتلوا بعضهم ، ولما كان محمد علي يخشى مناورتهم ضده أرسل ابنه إبراهيم باشا على رأس قوة عسكرية للقضاء عليهم، فهاجمهم وذبح عدداً كبيراً منهم، وإزاء هذه الظروف القاسية لم يجد بقية المماليك مخرجا سوى الاتجاه جنوبا نحو السودان، فاستقروا فى دار الشايقية، فرحب بهم محمود العادلانابى ولكنهم بعد مدة غدروا به وقتلوه مع عدد من حاشيته، ثم انتشروا بعد ذلك فى دار الشايقية، فدمروا ممتلكات أفراد القبيلة واستولوا على الخراج منهم، ومنذ ذلك الوقت نشب صراع عنيف بين الجانبين لم يسفر عن نتيجة حاسمة، وانتهى باتفاق سُمح بمقتضاه للمماليك بالاستقرار فى منطقة "أرقو" مع إعطائهم منطقة شاطئ النيل الممتد من خندق إلى حنك، واختار المماليك "مراقة" عاصمة لهم(٣٤) .

وخشى محمد علي من تحالف هؤلاء المماليك مع سلطان سنار أو مع ملك الأمهرة (الحبشة- وإثيوبيا حاليا) أو مع الإنجليز - أعداء محمد علي الأول- فاضطر إلى أن يطلب من ملك سنار عام ١٨١٣ عدم مساعدة هؤلاء المماليك، وعاد وطلب الشىء نفسه من ملك الأمهرة عام ١٨١٥ ، بل إن المماليك لم يلبثوا أن اتصلوا من مهجرهم بالسودان بالوهابيين فى الجزيرة العربية عن طريق مبعوثهم حسن جوهر الكاشف من أجل التحالف معهم ضد محمد علي(٣٥).

وقد ظل المماليك فى حركة ونشاط بإقليم دنقلة، وأخضعوا لنفوذهم ملوك بعض القبائل، "ودبت فى نفوسهم عوامل الكبرياء والجبروت، فحاولوا النزول إلى مصر ، إلا أن محمد علي لم يكن بالرجل المستكين حتى يلجأ إلى الراحة فى انتظار وصولهم، بل عول على الذهاب إليهم لمطاردتهم فى ملاجئهم التى آووا إليها ليقضى عليهم قضاء مبرما "(٣٦).

وحين توجهت الحملات العسكرية التركية المصرية إلى الجنوب ١٨٢٠-١٨٢١ وتوغل محمد بك الدفتردار بقواته فى بلاد السودان - بعد الحملة الأولى التى قادها إسماعيل باشا -وكان معه حوالى خمسمائة فارس أدرك بهم حدود دنقلة، فلما رآه المماليك ولوا مدبرين نحو شندى واستولى الذعر على معظمهم(٣٧)، وحضرت طائفة من بقية أمرائهم من دنقلة إلى الجيزة، وأقاموا هناك ، وأرسلوا للباشا طالبين العفو عنهم، والتجاوز عما اقترفوه من الذنوب، خوفا من انتقامه منهم ، فأعطى الوالى الأمان لبعضهم، واختفى الباقون منهم سواء فى مصر أو فى السودان(٣٨)، ولم يظهر لهم أى دور سياسى بعد ذلك . ومن الواضح أن محمد علي قد خشى زيادة قوة المماليك واستعانتهم بالإنجليز ضده بعد أن فشلت حملتهم فى احتلال مصر، وقد كان بين الإنجليز والمماليك تحالف وثيق ، وجاءت حملة الجنرال فريزر سنة ١٨٠٧ على أمل مساعدة المماليك للإنجليز فى احتلال مصر، مقابل مساعدة الأخيرين لهم على استعادة مكانتهم فيها، ولكن من سوء حظ حملة فريزر أن محمد علي كان يطارد المماليك فى الصعيد، كما كان من سوء حظهم أن ظهرت المقاومة الشعبية المصرية فى رشيد والحماد على أعلى مستوى لها فى هذا الوقت، فغادرت الحملة مصر إلى حيث جاءت(٣٩). وعلى كل حال ، فإن متابعة المماليك فى مصر، وهروبهم إلى الصعيد ثم إلى السودان، وخوف محمد علي من وجودهم، وخشيته من تحالفهم مع الإنجليز، كانت أحد أهم أسباب تحركه نحو الجنوب وضمه لبلاد السودان .

خامسا: تجنيد السودانيين فى الجيش الحديث الذى أراد تكوينه

كانت القوات التى تكون منها جيش محمد علي فى بداية ولايته تتشكل من وحدات عسكرية نظامية وغير نظامية من الألبان والأرناءوط وغيرهم من عناصر مملوكية وتركية ، وكانت تلك الوحدات قد اعتادت على الحرب بأساليب تقليدية ، ولما كان محمد علي يريد تكوين جيش جديد مدرب على أحدث الأسلحة، وجاهز لاتخاذ أية مناورات حربية أو مهمات صعبة ، فقد فكر أن يستخدم قوات جديدة خلاف القوات القديمة الكثيرة التمرد، والثائرة عليه دائماً، والتى ترفض طاعة الأوامر أو نظم الحرب الحديثة . ولذلك فإن محمد علي من منطلق معرفته بأحوال السودانيين وصفاتهم التى تتميز بالأمانة والشجاعة، فكر فى أن يفتح السودان فيكون قد أصاب أكثر من هدف واحد، فهو يتخلص من المماليك، ويؤمن تجارة السودان واقتصاده، ويجعل منه عمقا استراتيجيا لمصر، ويأتى بالسودانيين منه بشتى الوسائل ليجعل منهم نواة جيشه الذى أراده قادرا على التصدى لأى غزو أوروبى محتمل من جانب بريطانيا بصفة خاصة ، مع الإبقاء على المصريين للعمل فى الزراعة[٤٠] .

وعقب فتح السودان بدأت الاتصالات بين الحكومة المصرية و القائمين على الإدارة فيها لإرسال الشبان السودانيين للخدمة فى الجيش المصرى [٤١] ويرى حسن أحمد إبراهيم أن الحصول على العبيد من السودانيين كان من أهم دوافع محمد علي للذهاب إلى السودان، ففى رسالة له إلى محمد بك الدفتردار يقول: "وإن لا تكون هذه المسائل والوسائل (يقصد بذلك التنقيب عن الحديد والمعادن) باعثا على إضاعة الوقت دون إيفاء مهمة جلب العبيد أو سببا لتجويزكم البطء والتكاسل فى صرف ما فى الطاقة فى سبيل تحقيق هذه المهمة"، ويقول محمد علي أيضا فى رسالة لابنه إبراهيم : "وجلب السودانيين هو غاية المراد ونتيجة المقصود مهما كانت الصورة التى يجلبون بها من أوطانهم"[٤٢].

ويذكر الرافعى أن محمد علي فكر فى إنشاء الجيش الجديد سنة ١٨١٥ بعد عودته من حرب الوهابيين فأمر بتدريب فرقة من جنود ابنه إسماعيل باشا على النظام الجديد،على أن هؤلاء الجند تذمروا وتآمروا على محمد علي نفسه، وذهبوا إلى ميدان الرميلة ونهبوا الأسواق، ولكن الوالى الذكى عالج الفتنة بالعقل والحكمة حتى أخمدها(٤٣). وقد ذكر الجبرتى التفاصيل الكاملة لتمرد الجند ونهبهم للمتاجر، وإحداثهم الشغب والاعتداء على الناس فضج سكان القاهرة من مساوئهم ، فأمر محمد علي بنقل هذه الكتائب إلى الأقاليم ، حيث أقام لهم هناك القشلاقات . وقرر الوالى بعد فتح السودان أن يؤسس جيشه الجديد من عناصر سودانية فقام بإنشاء المدرسة الحربية فى أسوان، واستعان بالكولونيل سيف Seves (سليمان باشا فيما بعد) الفرنسى والذى كان قائدا فى جيش نابليون بونابرت سابقا لكى يدرب الجيش على الأسلحة الحديثة، ونظم الحرب المتقدمة، وجند محمد على بالفعل حوالى عشرين ألفا من السودانيين ، وبدأت عملية تدريبهم فى "بنى عدى" قرب منفلوط فى صعيد مصر على النظام الحديث، على أن تجربة تجنيد السودانيين لم تصادف النجاح المطلوب(٤٤).

وتدلنا حقائق التاريخ على أن الشعبين المصرى والسودانى قد عانا من استغلال محمد علي إياهما، فجماعات من الشعب السودانى سواء مجندين أو عبيد دخلوا الجيش ونقلوا من بلادهم للتدريب فى مصر، ولكن المناخ والظروف لم تناسبهم ،وهكذا تحملوا الصعاب، واستغلوا منتهى الاستغلال، كذلك فإن الشعب المصرى من شباب الفلاحين فى الريف المصرى استغلهم محمد علي فى الزراعة، ثم أدخلهم فى جيشه حيث كانوا يؤخذون فى سن مبكرة، وربما لا يعودون إلى قراهم أبدا ،فقد يموتون فى الحرب أو يعودون بعد ذبول زهرة شبابهم، ولاشك فى أن هؤلاء وأسرهم قد أفادوا من بعض إيجابيات حكم محمد علي، ولكن السلبيات كانت أكبر بكثير حتى نفر الناس فى مصر من التجنيد، وكان شباب الفلاحين يحاولون التهرب من الالتحاق بالجندية بتشويه أنفسهم سواء بقطع سبابة أيديهم، أو فقع إحدى العينين، أو كسر أسنانهم الأمامية، حتى

إن محمد علي قام بتجنيد كتائب من المصريين المشوهين[٤٥]، فهل بعد ذلك استغلال أسوأ من ذلك ؟، ومن ثم فإن ما جرى فى السودان من فتح أو غزو أو استغلال هو من إدارة محمد علي ورجال حكمه وقادة جنده من الأتراك، وما كان المصريون سوى أداة عمل مثلهم مثل السودانيين ، وهذا ما يؤكد على أن كلا من الشعبين - المصرى والسودانى - عانى تحت السيطرة التركية،كما عانا كذلك تحت سيطرة الاحتلال البريطانى فيما بعد، الذى راهن على فصلهما وإضعافهما واستغلالهما.

ولعل مما تجدر الإشارة إليه فى هذا المقام أنه لما لاحظ محمد علي أن تجارة العبيد قد انتشرت فى السودان فى أواخر أيامه أمر على الفور بإلغاء تلك التجارة الممقوتة، لما رآه من فظاعة النخاسين ، وما ارتكبوه من القسوة فى جلب الأرقاء وترحيلهم إلى مختلف الأمصار، وأنفذ محمد علي رسلا يعلنون هذا الأمر فى جميع أنحاء البلاد، ولكن رغم هذا ظلت تجارة الرقيق لعشرات السنين، لأن هذه التجارة كانت شائعة فى أفريقيا كلها واشتغل بها الأوروبيون والعرب على السواء، ولكن إسماعيل باشا الذى تولى حكم مصر سنة ١٨٦٣ قضى تقريبا على هذه التجارة المقيتة[٤٦].وخلاصة القول فى هذه الجزئية من البحث أن واحداً من دوافع محمد علي للذهاب إلى السودان هو تجنيد السودانيين فى الجيش الذى أراد تحديثه، رغم فشله فى تحقيق ذلك الغرض .

سادسا: الاستفادة من موارد السودان الاقتصادية واستخراج الذهب

كان حكم الأتراك والمماليك قد أفقر مصر بوصفها ولاية عثمانية، ثم جاء محمد علي وانشغل بعدد من الحروب فى الجزيرة العربية، واهتم بإقامة بعض المشروعات الاقتصادية الكبرى، وأمل أن يقيم فى مصر دولة كبيرة يمكنها أن تضارع الدول الأوروبية، وكان لابد للباشا من أن يبحث عن مصدر جديد لتوفير المال اللازم لتنفيذ ما استهدفه من مشروعات كبرى، ومن ثم فقد كان ذهابه إلى السودان -حسب وجهات نظر متعددة-[٤٧] البحث عن الذهب الذى سمع عن

وجوده هناك وارتأى أن امتلاكه هذا المعدن النفيس سوف يمكنه من تحقيق آماله الجسام، وتعويض ما أفتقده من الأموال فى حروبه مع الوهابيين، ولذلك فإن "إدوارد جوان" رأى أن محمد علي كان يرمى من وراء مشروعه لفتح السودان – ضمن ما رمى إليه– تحقيق غايات مهمة،ألا وهى امتلاك بلاد النوبة ودنقلة وسنار وكردفان ودارفور لاستخراج الذهب والماس ،حيث وصلته أخبار بوجود هذين المعدنين بكثرة فى تلك المناطق[٤٨] من مستشاريه الفرنسيين وغيرهم[٤٩].

وقد اهتم محمد علي بالفعل باستغلال الموارد الاقتصادية للسودان بما فيها البحث عن المعادن الأخرى غير الذهب بخاصة الحديد، فقد ذكر فى رسالة له موجهة إلى صهره الدفتردار "ماعز مطلوبنا أن تستوثقوا من المحال التى يوجد بها جوهر المعدن المذكور (الحديد) قويا وبمقادير وافية مباركة، وأن تدبروا وتهيئوا الأسباب التى تستوجبها سهولة استخراجه"[٥٠]. وقد عرف محمد علي أهمية الموارد الاقتصادية للسودان من كتابات الرحالة الأوروبيين الذين زاروا السودان فى القرنين السابع عشر والثامن عشر، والذين تحدثوا عن وفرة منتجات الصمغ والعاج وسن الفيل وريش النعام وجلود المواشى، وكانت تدخل بعض هذه المنتجات إلى مصر عن طريق درب الأربعين من كردفان حتى الجيزة فى جنوب مصر.

ومن الرحالة الذين زاروا السودان وأفاد محمد علي من أفكارهم "جاك فرانسوا بونسيه ١٦٩٨-١٧٠٠»، و"كرامب البافارى ١٧٠١-١٧٠٢"، والرحالة السويسرى "بركهارت ١٨١٣-١٨١٥". ولاشك فى أن عاهل مصر قدر أهمية وفوائد التجارة مع السودان أيضاً من خلال محادثاته مع الرحالة والقناصل الأوروبيين ومن خلال مقابلاته لرجال القوافل. وبما أن السودان لم يكن خاضعا آنذاك لقوة سياسية موحدة فقد كان من الطبيعى أن يشتد نشاط اللصوص وقطاع الطرق من قبائل العبابدة والحلانقة وبنى عامر التى كانت تهاجم القوافل القادمة من الشرق بين النيل والبحر الأحمر، كذلك تعرضت قوافل طريق درب

الأربعين لسطو قبائل البقارة والكبابيش والشايقية، ومما زاد الطين بلة تلك الضرائب الفادحة التى كان يفرضها ملوك السودان وشيوخه، والإتاوات الكثيرة التى ألحوا فى طلبها من التجار(٥١). ولما كانت الظروف قاسية على هذا النحو، فإن ذلك قد أدى إلى تناقص عدد التجار وحجم التجارة بين مصر والسودان، ولكى يعيد الباشا العلاقات التجارية بين البلدين كان عليه أن يؤمن طرق القوافل التجارية ويعيد الاستقرار فى ربوع السودان، ولتحقيق ذلك كان لابد من إخضاع ملوك السودان وشيوخه ، ومن ثم كانت عملية فتح السودان فى عام ١٨٢٠ (٥٢)، الذى أدرك أن توسيع نطاق التجارة بينه وبين مصر يعد فائدة كبيرة لعمران البلدين، وتنمية لاقتصادهما، بخاصة إذا تمت الاستفادة من المكوس والضرائب، فضلا عن الموارد الاقتصادية والمعدنية(٥٣).

يمكن القول استخلاصا مما سبق أن الظروف الدولية المحيطة بمصر والسودان والتطورات التاريخية لكلا البلدين ، والأحوال الداخلية لهما، وطموحات محمد علي باشا لإقامة دولة قوية مترامية الأطراف، والدوافع الاقتصادية التى سبق عرضها كانت دافعة لمحمد علي لفتح السودان؟ ولكن هل ما قام به يعد من قبيل الفتح أو الغزو أو الاستعمار؟ لقد اعتادت كتب التاريخ التى تحدثت عن دخول محمد علي السودان على أن تطلق على هذه العملية "فتح السودان" ،بل إن معظم الكتب التى كتبها السودانيون أنفسهم(٥٤)، وصفت دخول محمد علي السودان بـ"الفتح"، ولكن لما كانت عملية الفتح تعنى فى الأساس قيام دولة إسلامية بفتح بلاد غير مسلمة وإدخالها فى نطاق الإسلام، ولما كانت بلاد السودان الشمالى تدين بالإسلام فإن ما قام به محمد علي هو فى الواقع "غزو" وليس "فتحا"، ولكن اعتاد كثير من الباحثين أن يصفوه بأنه "فتح"، أما أن يكون دخول محمد علي السودان استعمارا فهذه الفكرة محل جدل كبير، لأن الدولة المصرية لم تكن قد انتقلت نهائيا إلى مرحلة الرأسمالية التى يؤدى تطورها إلى تحولها لمرحلة الاستعمار، ومن ثم فإن ما وقع فى السودان عام ١٨٢٠ ليس استعمارا(٥٥)، وبالتالى فإن وصف البعض ما حدث فى السودان بالاستعمار

المصرى يعد خطأ كبيراً، وحقيقة الأمر أن ما حدث فى السودان هو حكم محمد علي لهذا البلد، كما كان حكمه لمصر بالضبط، وكان الشعب المصرى كما كان الشعب السودانى أداة هذا الحكم ووسيلته، فالشعبان هما اللذان أقاما المدن، ومهدا الأرض، ودفُعا إلى الحروب، وحفرا الترع والرياحات، وزرعا القمح والقطن...وغيرهما، ونشرا الأمن، وتقبلا النظم الحديثة، وهذا ينفى تماما فكرة الاستعمار المصرى للسودان فى القرن التاسع عشر.

ويرى كثير من المؤرخين والمثقفين السودانيين أنفسهم أن الخديو توفيق وأتباعه من الإقطاعيين الذين خانوا عرابى وزملاءه هم أصحاب الغزو والاستغلال التركى فى السودان ،حيث كان الأتراك هم القادة والحكام فى حين كان المصريون أداة العمل والإنتاج، وأنه حتى بعد إعادة غزو السودان فيما سمى بالحكم الثنائى سنة ١٨٩٩، لم يكن الشعب المصرى مستعمِرًا حتى رغم أن بعض المصريين عمل بوصفهم مآمير أو نواب مآمير فى بعض الأقاليم السودانية ، ورغم وجود جيش مصرى وعلم مصرى يرفرف على دور الحكومة إلى جوار العلم الإنجليزى ، فذلك كله لم ينف رؤية الشعب السودانى عن أن الحكم الحقيقى فى السودان كان للاستعمار الإنجليزى[٥٦] .

وبشكل عام فإن غزو السودان وحكمه خلال تلك الحقبة من عهد محمد علي وبعده لم يتم بوساطة المصريين ، بل كان بواسطة عناصر تركية سيطرت على مصر نفسها، حتى أنه لم يتول مصرى واحد أية مناصب قيادية -بخاصة منصب حاكم عام- فى السودان طيلة القرن التاسع عشر، فقد كانت جميعها تقريبا من نصيب الأتراك، ولم يتول وظيفة حاكم عام السودان فى عهد الحكم الثنائى أيضا أى مصرى، فقد كانوا جميعا من الإنجليز[٥٧].

ونحن نتفق مع الذين يرون أن السودان لم يشكل كيانا قوميا خاضعا لسلطة مركزية واحدة قبل مجىء محمد علي ، وهذا يخالف ما يراه الدكتور حسن أحمد إبراهيم ؛ لأن السودان الحديث بحدوده الجغرافية الحالية يدين بشكله ووجوده

القومى لتجربة محمد علي لإقامة دولة فيه[٥٨]. وبسبب أهمية السودان وارتباطه بمصر فإنه بعد حروب محمد على فى بلاد الشام ومواجهته للدولة العثمانية ذاتها قام محمد على فى عام ١٨٣٨ بزيارة إلى بلاد السودان ، مؤكدا بذلك أهمية السودان بالنسبة لدولته، وهو الذى تحمل أعباء فتحه ومسئولية هذا الفتح، ولذلك عندما صدر الفرمان العثمانى سنة١٨٤١ اعترف وأقر السلطان العثمانى بتبعية السودان بمناطقه الواسعة لباشوية محمد علي التى أصبحت بالوراثة لأبنائه من بعده لأن السودان مجاور لمصر من الجنوب نحو منابع النيل والمصالح المائية اللازمة لمصر التى لم يكن من الممكن التنازل عنها، فى حين نلاحظ أن هذا الإقرار والاعتراف لم ينسحب على الجزيرة العربية التى صممت إنجلترا على إزالة الوجود المصرى منها حتى تصبح تجارتها آمنة فى الخليج العربى والبحر الأحمر والعراق، كما أن هذا القرار والاعتراف لم ينسحب على بلاد الشام ، التى كانت قريبة من الدولة العثمانية، ومن أهم ولاياتها، وشواطئها تخص أيضا أمن بريطانيا فى البحر المتوسط والعراق .

توصيف دولة محمد علي

اختلفت الآراء حول توصيف الدولة التى أراد محمد علي تكوينها فى مصر والجزيرة العربية والسودان وبلاد الشام . والواقع أن عملية فتح السودان فى نظر عبد الرحمن الرافعى تدخل فى إطار الحرب القومية؛ إذ كان هدف محمد علي من هذه العملية تأصيل وحدة وادى النيل، بخاصة أن مساحة السودان كبيرة وتضاهى ربع مساحة القارة الأوروبية، وبفتحه اتسعت رقعة الدولة المصرية فبلغت ثلاثة أمثال ما كانت عليه، ووصلت إلى معظم حدود وادى النيل الطبيعية[٥٩].

وفى تقديرنا أن محمد علي أراد بفتوحاته إقامة دولة كبيرة تضم جميع البلدان العربية يحكمها هو وأولاده من بعده . ويباليته نجح فى ذلك ، فقد كان سيخلصنا من الفرقة التى لاتزال تعانى منها، ولوحد بلادنا العربية كما وحد

بسمارك العنصر الجرمانى بإقامة الدولة الألمانية الموحدة سنة ١٨٧٠ . أما فكرة إحياء العربية وتكوين دولة كبرى تضم العناصر العربية، فلم تكن فكرة محمد علي بل كانت فكرة إبراهيم باشا ابنه، فعلى الرغم من أصله التركى فقد احتقر الأتراك ومجد العرب ورفع من شأنهم ، وفى رده على سؤال لأحد جنوده عن السر وراء احتقاره للأتراك أجاب إبراهيم باشا بقوله كما ذكر الرافعى نقلا عن كتاب مهمة البارون ليو الكونت : "أنا لست تركيا فإنى جئت صبياً إلى مصر، ومنذ ذلك الوقت مصرتنى مصر بشمسها وغيرت من دمى وجعلته عربيا"، وبعد مقابلة بين البارون ليو الكونت وإبراهيم باشا عام ١٨٣٣ فى الأناضول قال البارون :"إن إبراهيم باشا يجاهر علنا بأنه ينوى إعطاء العرب حقوقهم وإسناد المناصب إليهم، سواء فى الإدارة أو الجيش، وأن يجعل منهم شعبا مستقلا ويشركهم فى إدارة الشئون المالية، ويعودهم على سلطة الحكم كما يتحملون تكاليفه..." (٦٠) .

غير أن بريطانيا ومن ورائها الدول الأوروبية وقفت متربصة لمحمد علي، وعوقت قيام مشروعه ومشروع ابنه إبراهيم لإقامة دولة كبرى موحدة فى منطقة الشرق العربى وحوض النيل، وربما ضمت هذه الدولة المغرب العربى أيضا(٦١) ، وقد منعت بريطانيا قيام هذه الدولة خوفا على مصالحها فى الهند، والمشرق العربى ، وزادت مخاوفها بعد دخول محمد علي وجيوشه بلاد السودان، ومن ثم استغلت فرصة اكتساح الجيوش المصرية بلاد الشام، وهزيمة الجيوش العثمانية فى آسيا الصغرى، وتهديد الدولة العثمانية ذاتها، وكونت كما سبقت الإشارة إلى ذلك حلفا ضم إلى جانبها فرنسا والنمسا وروسيا هدفه التصدى لمحمد علي للإبقاء على الدولة العثمانية، ومحاربته فى بلاد الشام، وإفشال سياسته الاحتكارية التى تخدم مصالح دولته التى أخذت فى الاتساع وأعاقت المصالح والاستغلال الأجنبيين فى هذه المنطقة، وحدد المتحالفون فى لندن ١٨٤٠ لمحمد علي حكم مصر فقط ، وامتدادها فى وادى النيل حيث اعتبروا أن هذا الوالى هو الذى فتح السودان واستغله وفيه منابع النيل مصدر الحياة لمصر،

وإخراج محمد علي منه يعد بمثابة قطع للشجرة من جذورها ، وبناء على ما أقره مؤتمر لندن صدر الفرمان العثمانى عام ١٨٤١ بولاية محمد علي على ولاية مصر وامتدادها الطبيعى فى السودان، حيث ورد بنص الفرمان :"إن سدتنا الملوكية كما توضح فى فرماننا السلطانى قد ثبتتكم على ولاية مصر بطريق التوارث بشروط معلومة وحدود معينة، وقد قلدتكم فضلا عن ولاية مصر، ولاية مقاطعات النوبة والدارفور وكردفان وسنار، وجميع توابعها وملحقاتها الخارجية عن حدود مصر... »[٦٢].

وهكذا انهارت مشروعات محمد علي باشا وابنه ، وبدلا من أن يأتيه الخطر البريطانى الذى كان يتهدده دائما من السودان فى الجنوب ، جاءه الخطر من الشمال حيث بلاد الشام وآسيا الصغرى ، فضاعت آماله وآمال ابنه إبراهيم وماتا سويا فى عام واحد تلفهما المرارة والحسرة على فشل مشروعهما . جدير بالذكر أن دولة محمد علي قد وصفها البعض بأنها دولة رأسمالية ، على أن ذلك الوصف ليس دقيقا كل الدقة ؛ لأن قوانين الملكية والنشاط الاقتصادى الحر لم تكن قد ترسخت بعد . ويرى بعض الباحثين أن نظام محمد علي كان نظاماً يقع ما بين الإقطاع والرأسمالية[٦٣]، لأن مصر كانت لا تزال تعانى من بقايا الإقطاع، بينما يرى باحثون آخرون أن نظام محمد علي كان نظام رأسمالية دولة[٦٤]، ورغم معقولية هذا الرأى إلا أن مصر لم تكن قد تطورت بعد إلى مستوى الرأسمالية الكاملة .

فتح السودان ومسألة الحدود المصرية السودانية

فيما يخص مشكلات الحدود بين مصر والسودان فإنه لم تأت مناسبة التفكير فيها إلا منذ عام ١٨٨٣ عقب احتلال بريطانيا لمصر ١٨٨٢ ، وتلقى الجيش المصرى التركى ضربات قوية فى السودان على أثر قيام الثورة المهدية ، ومن ثم رأت بريطانيا أن أنسب حل هو سحب الجيش المصرى من السودان ؛ لأن ذلك يخدم مخططاتها الاستعمارية ، ويخفف العبء على ميزانية مصر[٦٥].

وتمت بالفعل عملية الانسحاب للقوات المصرية التركية - ذات القيادة الإنجليزية التى كان يقودها الجنرال غوردون- بشكل إملائى من جانب دار المعتمد البريطانى فى القاهرة المستر "إيفلين برنج"، ولم تأبه السياسة البريطانية برفض رئيس الوزارة المصرية شريف باشا الانسحاب من السودان وقدم استقالة وزارته، فتشكلت وزارة جديدة برئاسة نوبار باشا الأرمنى الأصل فوافق على انسحاب الجيش المصرى التركى من السودان ١٨٨٤ (٦٦).

وعلى كل حال فقد انتهت المداولات الخاصة بالحدود بين مصر وبلاد السودان بعد انسحاب الجيش منها والتى تقررت عند وادى حلفا وذلك لأن الإدارة المصرية كانت موجودة دائما عند هذه المنطقة قبل عام ١٨٢٠، والنقطة التى تم اختيارها لكى تنسحب القوات المصرية إليها كانت تقع عند خط ٢٢,٥° شمال خط الاستواء، والواقع أنه لم يكن موجودا قبل عام ١٨٢٠ ما يسمى بالسودان لأنه كان بمثابة مجموعة من المشيخات والسلطنات والتحالفات القبلية، كما أن الذى كان موجودا بعد هذا التاريخ حتى سنة ١٨٨٥ هو السودان المصرى التركى الذى لم يكن هناك داع للبحث عن خط للحدود بينه وبين الجزء الثانى من الوطن(٦٧) .

وليس من شك فى أن مشكلات الحدود بين مصر والسودان فى منطقة حلايب التى ظهرت على السطح خلال التسعينيات من القرن الماضى كان سببها الخلاف السياسى بين الحكومة السودانية ومصر وقتما كان حسن الترابى ذو الدور المؤثر فى تسيير شئونها، وحيث أن الترابى كان ضد السياسة المصرية التى كانت تواجه وتحارب وتجرم الإرهاب الذى تحركه الأصولية الإسلامية، والذى طال الرئيس المصرى وكادت نيرانه أن تودى بحياته ، لذلك قلب الترابى فى الأوراق القديمة، وأظهر على السطح مشكلة حلايب الحدودية بين مصر والسودان، التى ليست سبب أزمة السودان ومشاكله ولا هى سبب مشكلة التراجع الاقتصادى لمصر ، وقد طفت على السطح هذه المشكلة بعد ثورة ١٩٥٢، على أن مصر عالجتها بحس وطنى صادق؛ لأنه إذا كانت تنادى بالقومية والوحدة

لوادى النيل والمنطقة العربية فكيف بها تدخل فى مشكلات حدودية ليست بذات أهمية[٦٨].

ولا نجد فى نهاية هذه الدراسة سوى التأكيد على التقارب فى العلاقات والمصالح الاقتصادية بين مصر والسودان ، ومناداة الحكومتين المصرية والسودانية يؤيدهما موقف شعبى واسع بضرورة التكامل والتوحد بدلا من الانفصال والتشرذم فى عصر التكتلات الكبيرة ، فإذا كانت العوامل الطبيعية والبشرية والتاريخية واللغوية والثقافية تتحرك نحو التوحد فإن ما فعله محمد علي فى ضم السودان كان شيئا طبيعيا فى ضوء الظروف التى كانت تحيط بالبلدين ، وإذا كانت الدول الاستعمارية قد احتلت بلدان أفريقيا وآسيا وغيرها بلا مبرر إلا الاستغلال ، فهل يلام محمد علي فيما فعله من أجل توحيد قوتين عربيتين أفريقيتين متجاورتين ، متلاقية مصالحهما الطبيعية والبشرية والاقتصادية؟!.

الهوامش

(١) عبد العليم خلاف: مصر وأفريقيا الجهود الكشفية فى عصر الخديو إسماعيل، دار عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، ط١، القاهرة، ١٩٩٧، ص١٩ .

(٢) عبد الله حسين: السودان القديم والجديد، عرض تاريخى لشئون السودان منذ أقدم العصور إلى منتصف القرن العشرين، مطبعة الشباب الحديثة، القاهرة ، ١٩٤٧، ص ٨٨-١٠٢ .

(٣) حسن أحمد إبراهيم: محمد علي فى السودان، دار التأليف والترجمة والنشر، جامعة الخرطوم، بدون تاريخ، ص١٤ .

(٤) محمد عوض محمد: السودان الشمالى، سكانه وقبائله، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٥١،ص ٢٩٩-٣٠٢، انظر أيضا، صلاح الدين علي الشامى: السودان دراسة جغرافية، منشأة المعارف بالإسكندرية، القاهرة، ١٩٧٢، ص ٢٢٩ .
بلدة "الدبة" تقع فى أقصى انحناء النيل جنوب " أبو حمد " بمسافة كبيرة .

(٥) نادية بدوى : يوميات باحثة مصرية فى حلايب، دار الهلال، القاهرة، ١٩٩٣ ، ص٨-١١ .

(٦) حسن أحمد إبراهيم: مرجع سابق، ص ١٤-١٥ .

(٧) نفس المرجع.

(٨) نفس المرجع ، ص١٦-١٧ .

(٩) نفس المرجع ، ص١٧-١٨ .

(١٠) نفس المرجع، ص١٨-١٩ .

(١١) ضرار صالح ضرار: تاريخ السودان الحديث، الدار السودانية للكتب، ط٣، الخرطوم ١٩٧٥ ، ص٢٣ .

(١٢) محمد فؤاد شكرى : مصر والسيادة على السودان ، دار الفكر العربى ، القاهرة ١٩٤٦ ، ص ٢٦ - ٢٨ ، انظر أيضا ، جلال يحيى : مصر الأفريقية ، والأطماع الاستعمارية فى القرن التاسع عشر ، دار المعارف، القاهرة ١٩٦٧، ص ٢٦-٢٨ ، وكذلك، إبراهيم العدوى : يقظة السودان ، الأنجلو المصرية ، القاهرة ١٩٧٩ ، ص ١٣ .

(١٣) جلال يحيى : المرجع السابق، ص٣٣ .

(١٤) محمد فؤاد شكرى : مصر والسودان، تاريخ وحدة وادى النيل السياسية فى القرن التاسع عشر، ١٨٣٠-١٨٩٩، دار المعارف، القاهرة ١٩٦٣، ص٨-٩ .

(١٥) عبد الرحمن الرافعى :عصر محمد علي ، دار المعارف، الطبعة السادسة، القاهرة ٢٠٠١ ، ص١٦٠-١٦١ .

(١٦) محمد فؤاد شكرى : مصر والسودان، ص١١ .

(١٧) مختار السويفى : مصر والنيل فى أربعة كتب عالمية، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة

٢٠٠٠، ص٨٠-٨١ .

(١٨) عبد الرحمن الرافعى: المرجع السابق، ص١٥٨ .

(١٩) نفس المرجع .

(٢٠) نفس المرجع.

(٢١) عبد العليم خلاف: المرجع السابق ، ص٢٢-٢٣ .

(٢٢) نفس المرجع.

(٢٣) أمين سامى: ملحق كتاب تقويم النيل عن الجسور والقناطر و«الكبارى» والخزانات على النيل وفروعه بمصر والسودان، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة ١٣٥٥هـ/ ١٩٣٦م، ص ص ٣ - ٤ - ٨ - ٩.

(٢٤) عبد العليم خلاف: المرجع السابق ، ص٢٢ .

(٢٥) عبد الحميد محمد السكندرى : قصة بريطانيا فى السودان، مطبعة مصطفى البابى الحلبى وأولاده، القاهرة ١٩٤٧،ص ٧-١١ .

(٢٦) نفس المرجع .

(٢٧) نفس المرجع ، ص١٢ .

(٢٨) عبد الرحمن الرافعى: المرجع السابق، ص١٥٩ .

(٢٩) محمد فؤاد شكرى : مصر والسيادة على السودان، ص١٦-١٩ .

(٣٠) نفس المرجع ، ص٨ .

(٣١) حسن أحمد إبراهيم: محمد علي فى السودان، ص٣٥-٣٦ ، انظر أيضاً ضرار صالح ضرار: المرجع السابق، ص٢٤ .

(٣٢) محمد فؤاد شكرى: تاريخ وحدة وادى النيل، هامش ص٨-٧ ، انظر أيضا ، حسن أحمد إبراهيم: لا وصاية على التاريخ... من كتاب "أكذوبة الاستعمار المصرى للسودان"، لعبد العظيم رمضان، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٨٨، ص٢٩-٣٦، وكان رمضان قد كتب مقالا فى مجلة الوادى عدد يونيو ١٩٧٩بعنوان :"احترسوا فى إعادة كتابة تاريخ السودان"، فرد عليه حسن أحمد إبراهيم بمقاله المذكور الذى ورد فى مجلة الوادى ، عدد أول يوليو ١٩٧٩، ص٣٣-٣٤ .

(٣٣) محمد فؤاد شكرى : نفس المرجع ، ص ٨ ، انظر أيضا حسن أحمد إبراهيم : الرؤية السودانية للعلاقات التاريخية المصرية السودانية ، ندوة العلاقات المصرية السودانية بين الماضى والحاضر والمستقبل ، وكذلك أسامة الغزالى حرب (محرر) : مركز الدراسات السياسية بكلية الاقتصاد والعلوم السياسية ، القاهرة ١٩٩٠ ، ص ٤١-٤٣ .

(٣٤) عبد المجيد عابدين: قبائل من السودان الشرقى والسودان الغربى، الدار السودانية، الخرطوم، ١٩٧٦ ص٣٧-٣٨ وكذلك حسن أحمد إبراهيم: محمد علي فى السودان،

ص٣٢-٣٣ .

(٣٥) جلال يحيى: المرجع السابق، ص ص٣٢-٣٣ .

(٣٦) إدوارد جوان: مصر فى القرن التاسع عشر، ترجمة : محمد مسعود، الطبعة الثانية، القاهرة ١٩٣١، ص٥٩٣-٥٩٤ .

(٣٧) نفس المرجع ، ص ٥٩٥ .

(٣٨) عبد الرحمن الرافعى : المرجع السابق، ص١٦٩-١٧٠ . انظر أيضًا عبد المجيد عابدين: مرجع سابق، ص٤١-٤٢ .

(٣٩) عبد الرحمن الرافعى: المرجع السابق، ص ص٦٨-٧٦ .

(٤٠) ضرار صالح ضرار: تاريخ السودان، ص٢١-٢٢ .

(٤١) جلال يحيى: مصر الأفريقية، ص ص٣٦-٣٧ .

(٤٢) حسن أحمد إبراهيم: لا وصاية على التاريخ ... من كتاب أكذوبة الاستعمار المصرى للسودان ، ص ٣١-٣٢ .

(٤٣) عبدالرحمن الرافعى: المرجع السابق ،ص٣٢٣-٣٢٤ .

(٤٤) نفس المرجع ، ص٣٢٢-٣٣٠ .

(٤٥) علي شلبى: المصريون والجندية، دار الكتاب الجامعى، ط١، القاهرة ١٩٨٨، ص٣٤ .

(٤٦) عبد الرحمن الرافعي : المرجع السابق ، ص١٧٦ .

(٤٧) نفس المرجع ، ص ١٥٦-١٥٧ .

(٤٨) عبد الله حسين : المرجع السابق ، ص١٠٢-١٠٣، انظر أيضا إدوارد جوان : مرجع سابق، ص٥٩٤ .

(٤٩) حسن أحمد إبراهيم : لا وصاية على التاريخ، من كتاب أكذوبة الاستعمار المصرى للسودان لعبد العظيم رمضان ، ص٣٢ .

(٥٠) حسن أحمد إبراهيم : رؤية سودانية للعلاقات التاريخية المصرية السودانية، ندوة العلاقات المصرية السودانية ، ص٤٠-٤١ .

(٥١) جلال يحيى: مصر الأفريقية، ص٣٣ .

(٥٢) حسن أحمد إبراهيم: محمد علي فى السودان، ص٢٨ .

(٥٣) عبد الرحمن الرافعى: عصر محمد علي، ص١٥٦-١٥٧ .

(٥٤) عبد الله حسين: المرجع السابق، ص ١٠٩-١٠٥، انظر أيضاً ،ضرار صالح ضرار: تاريخ السودان، ص٣٣ .

(٥٥) عبد العظيم رمضان: أكذوبة الاستعمار المصرى للسودان ، ص٥٩-٦٠ .

(٥٦) إدريس محمد موسى : محاذير حساسيات...إلى متى؟! مقال منشور فى كتاب أكذوبة الاستعمار المصرى للسودان رؤية تاريخية للدكتور عبد العظيم رمضان ، ص ٤٠-٤١ .

(٥٧) حسن أحمد إبراهيم : رؤية سودانية للعلاقات التاريخية المصرية السودانية ، ص٤١-٤٣ .

(٥٨) حسن أحمد إبراهيم : لا وصاية على التاريخ.. فى كتاب أكذوبة الاستعمار المصرى للسودان ، ص٣٤ .

(٥٩) عبد الرحمن الرافعى : عصر محمد علي ، ص ١٥٨- ١٥٩ .

(٦٠) حسن أحمد إبراهيم : محمد علي فى السودان، ص٣٨-٣٩ .

(٦١) عبد الرحمن الرافعى: المرجع السابق ، ص ٢٩٩- ٣٠٤، ص٣١٣- ٣١٦ .

(٦٢) يونان لبيب رزق : مشكلة حلايب، أعمال ندوة مصر وأفريقيا- الجذور التاريخية للمشكلات الأفريقية المعاصرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٩٦، ص٢٩ .

(٦٣) زكى البحيرى : تاريخ مصر الحديث والمعاصر فى مقررات المدارس المصرية، دار نهضة الشرق بجامعة القاهرة، ١٩٩٦ ، ص٩٥-٩٦ .

(٦٤) محمد دويدار : الاقتصاد المصرى بين التخلف والتطوير، دار الجامعات المصرية، الإسكندرية ١٩٧٨، ص١٥٣- ١٥٩ .

(٦٥) يونان لبيب رزق : مشكلة حلايب، ص٢٩ .

(٦٦) نفس المرجع ، ص ٣٠ .

(٦٧) نفس المرجع ، ص ٣٠-٣١ .

(٦٨) نفس المرجع ، ص ٣٥-٣٨ .